عوامل ازدهار الأدب العربي الحديث

أخذ الباحثون في الأعوام الأخيرة يُعنَون عناية واسعة بدراسة أدبنا العربي الحديث، فقلما يمضي عام دون أن تُنشر أبحاث جديدة تترجم لشاعر معروف أو كاتب مشهور أو لجيل بأجمعه من الشعراء والكتاب، أو تصوِّر تياراً اجتماعياً أو ترصد اتجاهاً قومياً أو تصف فنّاً بعينه من الفنون الشعرية أو النثرية . وقد اتسم هذا الأدب الحديث بالغنى والتنوع، وتبوأ مكانة مرموقة في تراثنا العربي الحافل .

ونحن نحتاج في دراستنا لهذا الأدب أن نلم بالأحداث الكبرى التي أثرت في حياة منشئية لأن الأدب في حقيقته مرآة ناصعة صافية تنعكس عليها ملامح البيئة وسمات العصر وروح المبدع .

١ـ ولعل أكبر الأحداث التي ألمت بالشرق العربي اقتحامُ الحملة الفرنسية لمصرَ والشام في آخر القرن الثامنَ عشرَ، واصطدامها بهذا الشعب الذي يرزح تحت أثقال الحكم العثماني منذ غزاه الترك واحتلوا معظم بلاد العرب في القرن السادسَ عشرَ. فقد أحمل الترك خلال الفترة المديدة من حكمهم البغيض للوطن العربي كل حياة فكرية وأدبية حتى نضب الفكر وانعدم الإبداع، إلا بقيةً من الوهج الضئيل والنور الخافت كانت تنبعث من أروقة الأزهر . لقد اطّلع الشعب العربي في مصر من خلال هذه الحملة على بعض وجوه الحياة

الأوربية، ورأى المصريون أفرادها يتناولون حياتهم المادية بصور لاعهد لهم بها من قبلُ، كما لفتت الحملة المصريين إلى ما أصابه الغربيون من تقدم في العلم وماقام به علماؤهم الذين صاحبوا الحملة من دراسات وبحوث. أما المطبعة التي أحضرها نابليون معه لغايات سياسية فكانت أول مطبعة تدخل مصر وتَلفِت المصريين إلى أهمية هذه الآلة في مضمار الفكر والثقافة، برغم أنها جُلِبت لأغراض تخدم مصالح المحتلين .

٢ - و لم تنتظر مصر طويلاً فقد عُني محمد علي باشا منذ سنة ١٨٢٦ بإرسال البعوث الكبرى، فاختلطت طائفة من شبابها وعلى رأسها رِفاعةُ الطهطاوي بحياة الغربيين، وأخذت تقرأ هناك في الأدب الغربي وتُفيد وتجتني اللذة الفنية الخالصة . وعاد رِفاعة وصحبه فشاركوا في حركة الترجمة العلمية التي أوجدتها ضرورة التعليم المدرسي، ثم أنشئت مدرسة الألسن لتعليم اللغات الأجنبية وعُيِّن رفاعةُ مديراً لها، و لم يلبث أن تأسس قلم للترجمة سنة ١٨٢٤ وتولى رفاعة أيضاً رياسته .

٣ - وفي الفترة نفسها بل قبل ذلك الحين كانت تلوح في سوريةَ وبخاصة في لبنانَ بوادر نهضة أدبية مباركة . فقد سبق عربُ لبنان إخوانهم في مصر إلى العناية بالآداب الغربية في عقر ديارهم، على حين لم يبلغ الأمر هذا المدى في عهد محمد علي الذي كان يرمي بالدرجة الأولى إلى تقوية الجيش وتسخير بعض العلوم العصرية لهذه الغاية . وفي طليعة الذين خدموا لغة القرآن في لبنان أحمد فارس الشدياق ونبهاء الأسر من آل اليازجي والشرتوني والبستاني .

٤ ــ لم تأخذ مصر بأسباب النهضة الحقيقية في العلوم والآداب إلا منذ عهد

اسماعيل إذ كثرت المدارس والمطابع والصحف وكان لهذا العهد فضل استبدال اللغة السائدة في المصالح والدواوين . كما عرفت حركة الترجمة عهدئذ عصرها الذهبي . وكان اسماعيل توّاقاً إلى الأخذ بكل أسباب الحضارة الغربية وجعل مصر الإفريقية كقطعة من أوربة

٥ ـ على أن دخول المطبعة إلى الشرق العربي كان له فضل كبير على النهضة الفكرية والأدبية . وعلى الرغم من أن حلب عرفت أول مطبعة في الشرق بفضل أحد الرهبان في القرن الثامن عشر ثم تلتها بعض المدن السورية ولبنان[1] ، إلا أن مطبعة نابليون تركت في مصر أثراً كبيراً كان في مقدمة نتائجه تأسيس أول مطبعة رسمية كبرى في مصر هي مطبعة (بولاق) .

٦ ـ ومنذ ذلك الحين أخذ وجه الحياة الفكرية في الشرق العربي يتبدل جوهرياً ، فلأول مرة في تاريخه تغدو العلوم والآداب والفنون في متناول جماهير الأمة بعد أن كانت محتكراً لفئة من الناس لايستطيع سواها اقتناء الكتب لأن ثمنها كان باهظاً نتيجة نسخها باليد . فقد أخذت المطابع تقذف بآلاف النسخ للكتاب الواحد بثمن بخس . وبذلك اتسع تبادل الأفكار في العلوم والفنون والآداب، بل لقد أصبحت حقاً مشاعاً للجميع وزالت بذلك أرستقراطية الفكر على نحو ماحدث في أوربةَ نفسِها قبل ذلك القرن .

وكان في مقدمة ماعُنيت به مطبعة بولاق وسائرُ المطابع في أول عهدها العمل على إحياء التراث العربي الحافل وبعث نتاجه العريق، فأخذت المخطوطات تطلعُ على الملأ وتخرج من كهوفها المظلمة وأقبيتها الرطبة لترى

---

[1] انظر كتاب جرجي زيدان تاريخ آداب اللغة العربية ـ الجزء الرابع

النور وتغزو العقول وتبهر القلوب ، وغدا بوسع القارىء العربي أن يصحب الصفوة من أجداده وأن يقف على نتاج عقولهم النيرة وماسطرته أقلامهم النابهة فغدت دواوين الشعراء ومصنفات الكتاب بين أيدي الناشئين ينهلون منها ماطاب لهم النهل ويجتنون منها ما لذّ لهم الجني.

ولم يقف الأمر عند حدِّ انتشار دور النشر وعرض الكتب في المكاتب وبيعها في الأسواق بل جنحت الدولة إلى تأسيس دور عامة للكتب (كدار الكتب المصرية) سنة ١٨٧٠ في القاهرة و (دار الكتب الظاهرية) في دمشق وسواهما في مدن الشرق العربي وزودتها بأنواع الكتب والمصنفات، وخصصت لها أوقاتاً للمطالعة ثم فتحت أبوابها على مصراعيها أمام الناشئين والمتأدبين والباحثين والمؤلفين...

٧ ـ أما انتشار الصحافة فقد كان أولى ثمرات المطبعة، فأخذت الجرائد السياسية والأدبية طريقها إلى الظهور في مصر وفي لبنان ثم في دمشق وحلب والقدس. وتصادف أن نزحت إلى مصر طوائف من السوريين واللبنانيين بعد أن ضاقت بهم سبل القول في ظل الاستبداد العثماني وجُلّهم كان حسن الوقوف على الثقافة الغربية التي سبق أن تزود بها عن طريق المدارس التبشيرية. وفي مصر التقوا مع إخوانهم وأثمرت جهودهم في إصدار عدد من الصحف والمجلات ومنها "مصر والهلال والمقطم والمقتطف والأهرام"[1] إلى جانب المجلات والجرائد الأخرى "وادي النيل والأستاذ واللواء والمؤيد والجريدة والسياسة

---

[1] جريدة مصر لأديب اسحق، والهلال لجرجي زيدان، والمقطم والمقتطف ليعقوب صروف، والأهرام لسليم وبشارة تقلا.

الأسبوعية"[٢] ثم "الرسالة والثقافة والكاتب المصري والكتاب" [٣] كما كانت مجموعة أخرى من الصحف تصدر في دمشق وبيروت وحلب "كالجنان والفرات والمقتبس والمفيد والرابطة الأدبية"[٤] حتى إن عدداً من الصحف كان يصدر بعيداً عن العالم العربي في الآستانة نفسها وفي باريس وفي سويسرة "كالعروة الوثقى والجوائب والحضارة والأمة العربية "[٥] وسواها.

هذه الصحف وأمثالها،دليل على تعطش المجتمع العربي آنذاك للثقافة والمعرفة. ولقد كان أثرها بعيداً في تكوين الرأي العام العربي وتوجيهه نحو التحرر الفكري والاجتماعي والسياسي فبفضل الصحف أخذت الثقافة وتباشير الوعي تدخل كل بيت، وبخاصة بعد أن اتّخذ دعاة الإصلاح ورجال الفكر من الجريدة منبراً لآرائهم ومذياعاً لتعاليمهم ، حتى إن المقالة الأدبية لم تزدهر إلا في أحضان الصحافة . ومن هنا ازدادت قضايا المجتمع وشؤون الجماهير أهمية في مجالي الفنون الأدبية كالشعر القومي والاجتماعي والقصة والمقالة والخطابة ، و لم تعد عناية الأدباء تقتصر على مخاطبة الملوك والأمراء بعد أن غدا للشعب شأن وأي شأن .

---

[٢] وادي النيل لعبد الله أبي السعود والأستاذ لعبد الله نديم، واللواء لمصطفى كامل، والمؤيد لعلي يوسف والجريدة للطفي السيد، والسياسة الأسبوعية لمحمد حسين هيكل.

[٣] الرسالة لأحمد حسن الزيات، والثقافة لأحمد أمين، والكاتب المصري لطه حسين، والكتاب لعادل الغضبان .

[٤] الجنان للمعلم بطرس البستاني. والفرات رأس تحريرها عبد الرحمن الكواكبي في حلب والمقتبس لمحمد كرد علي، والمفيد لعبد الغني العريسي، والرابطة الأدبية لخليل مردَم .

[٥] أصدر العروة الوثقى في باريس جمال الدين الأفغاني ومحمد عبدة، وأصدر أحمد فارس الشدياق الجوائب في الآستانة، أيضاً . أما شكيب أرسلان فقد أصدر جريدة في سويسرة بالفرنسية وهي "الأمة العربية " .

٨- وعلى الرغم من إخفاق ثورة عرابي عام ١٨٨٢ فقد كان أثرها عميقاً في نفوس المصريين و لم تلبث العواطف أن اشتعلت إثر حادثة " دانشواي " ثم في ثورة ١٩١٩ الشاملة . كما أن الأحرار في الشام استطاعوا أن يطيحيوا بالسلطان العثماني المستبد ويكرهوه على إعلان الدستور حتى بلغت المشاعر القومية في ذلك الحين من الحماسة حداً لا نظير له . وما كان لمثل هذه الأحداث أن يمر دون أن يترك أثراً في النفوس وينشر بينها الوعي ويثير لدى كتابها وشعرائها القرائح ، وكان في ذلك خير مادة للأدب شعره ونثره.

٩- وتتأسس الجامعة المصرية عام ١٩٠٨ وينتشر التعليم في أنحاء الشرق العربي وتأخذ ظلمات الجهل في الانجلاء وأمواج التعصب في الانحسار ، ويظهر بين الحربين العالميتين جيل تسلح بالوعي وعمر قلبه بالإيمان ، فيجدُّ للمطالبة بحقوقه حتى ينتزعها من الغاصب ويكمل بذلك ما بدأه أجداده فإذا بلاده تنعم بحريتها ويجلو المستعمَر عن أرضها . ومنذ ذلك اليوم تبدأ مرحلة جديدة في تاريخ العرب إذ تهب سائر شعوبها لاستكمال سيادتها ، واستعادة أمجادها ويشتد النزوع إلى الاتحاد و لمِّ الشعث .